سائح فى العالم الجديد ...

[مشاهد مرّ بها الكاتب فى يوم من الأيام التى قضاها فى نيويورك فى صيف العام الماضى ، يصفها فى هذه المجالة]

حقا إنه ليوم عاصف .

لم تكن سماؤه ملبدة بالغيوم ، ولم تتطاير فيه البروق ولا دوّت الرعود ، ولم تهطل فيه شايبب المطر ولا هجهجت الرياح .

إنه كان عاصفاً ببرنامجه الذى أعددته لنفسى ، أو بالحرى الذى أعدوه لى .

أنت الآن فى نيويورك عروس العالم الجديد حضارة وطرافة . . .

أتترك الأيام تتابع يوماً إثر يوم ، دون أن تقتحم المدينة فى عرينها الأصيل ، وفيما يحف بها من أرباض ؟

إنك لتلقى بنفسك فى الشارع تجول فيه وتصول . ولكن أليس لحياة « الشارع » من نهاية ؟

إنها لحياة رخوة على الرغم مما بها من زحمة وتدافع .

هى لا تكلفك إلا هبوطاً إلى الطريق ، وانسياباً فيه ، تزجيك أمواجه . . .

حقا أن للشارع مباهج تفعم النفس من لذة و إمتاع ، ولكنها ذات طابع واحد ، و إن تغيرت ظواهره وألوانه . . .

لقد حللتَ نيويورك منذ قليل ، وستفارقها عما قريب ، فاذا بك تعود خاوى الوفاض إلا من شارع وبعض شارع !

حقٌّ أنك لم تقدم هذه المدينة لنزهة أو طواف ، و إنما قدمت فى مهمة علاج واستشفاء . ولكنك على أية حال سائح أبيت أو رضيت ، وعلى السائح فروض يجب أن ترعى . . .

لقد اندمجتَ فى زمرة أولئك السادة الذين يسيحون فى الأرض ، و يرتادون

البقاع والأصقاع . . . فعليك أن تمثل دور هؤلاء الأبطال ، لتشبع من نفسك غرورها المنهوم !

للسائح فى كل بلد مقام ملحوظ ، فالتبجيل يكتنفه ، وتيسير سبيله حق له على كل من يتصل به .

إن الأدلاّء والتراجمة لا يكادون يلمحونه حتى تراهم يهرعون إليه يخطبون وده ، ويكرمون وفادته ، ويغدقون عليه ألقاب العزة والاعظام .

همهم الأول أن يزينوا له النزهة ، ويعدوا له الأهبة ، ويتخذوا لذلك زخرفاً من القول يبتزون به بضعة دريهمات . . . لا يعنيهم بعد ذلك أأصاب متعة أم ضل سعيه وخاب !

إن السائح فى الواقع هو الرمز الأكبر للتغفل . . . الدليل يعلم ذلك حق العلم ، والسائح نفسه يعلم ذلك حق العلم . بيد أن هذا لا يمنع أن يتحد كلاهما وأن يتصافيا وأن يسلم كل منهما عنانه لصاحبه .

لا يفوت السائح أنه مضحوك منه ، مكذوب عليه ، فى أغلب الأمر ؛ وأن ما يبديه الأدلاّء من علائم التبجيل وآيات المصافاة ليست إلا شباكا منصوبة تتصيد مغانمه . ولكنه على الرغم من ذلك يلقى قياده لهؤلاء الأدلاء ، لغير شئ إلا أن يبدو فى أعين الجماهير سائحاً . . . سيداً من السراة الأعلام ، دفع به الترف إلى أن يقدم الديار ، إبهاجاً لنفسه ، وتنعيما لناظره . . .

إنه يطمع فى أن يبرز أمام سواد الناس تحدق به العيون وتحدّق فيه ، وتشير إليه الأصابع إشارة الاهتمام . . . فيحس أنه طراز آخر من الناس أنفس وأغلى ، وطينة أخرى من الخلق أطيب وأزكى . . .

إنه فى بادئ الأمر سائح مستطلع ، فاذا غمرته موجة الحفاوات ، وأحاطت به التشاريف من كل جانب ، نسى أن ذلك كله تمثيل وتمويه ، وخيل إليه أنه حقّا أحد أولئك السراة الأعلام الذين يشار إليهم بالبنان !

بهذه الخواطر رضيت لنفسى أن أكون سائحاً بحق !

أليس لى العذر بعد ذلك فى أن أعدّ هذا اليوم عاصفاً ؟

سألت مرافقى :

— إلى أية وجهة أنت ماض بى ؟

— إلى ولدرف أستريا . . .

— وما هذا « الولدرف أستريا » ؟

— فندق نيويورك الأول ، و إذن هو فندق العالم الأول !

ومثلت أمام ذلك الصرح الشاهق العظيم فى « بارك أفنيو » أصعّد فيه النظر . إنه ليعلو بطباقه ويتشامخ ، و إنه لينبسط بمنة ويسرة ، فاذا به يحتل بضخامته رقعة مربعة من الأرض تتفرع على جوانبها شوارع أربعة فساح . . .

ولم يطل بى التطلع ، خشية أن يعاجلنى دوار ، فاندفعنا مقتحمين بابه ، فطوانا الصرح فى جوفه طى القطرة فى صخب الأمواج ، وأخذ يرمى بنا من جانب إلى جانب ، كأننا فى قصر التيه ، ندور فى مسالك متشابكة مفض بعضها إلى بعض ، لا مدخل لها ولا مخرج .

ولبثنا نجوب هذه المتاهة ، نعرج إلى سمائها ، ونهبط إلى قاعها ، ونضرب فى أرجائها طولا وعرضاً ، تتوالى علينا الصور والمشاهد ، كأننا فى منام مضطرب تتراءى لنا فيه أضغاث أحلام .

ردهات فخمة ، مطاعم متباينة الدرجات ، مسارح ومراقص ، قاعات للمحاضرات ، أبهاء للحلاقة تعد فيها المقاعد عشرات ، مكتبات ، حوانيت ، مضخات للصوت يتعالى ضجيجها حيناً بعد حين . . . وهذه الأكداس من البشر ، تحسبها حزماً ضخمة من أوراق مالية تخطو هنا وهنالك !

وخلف هذه المظاهر المألوفة أمثالها فى دنيا الفنادق ، حياة أخرى مستورة ، لا تقل عنها ضخامة وسعة . . .

أنت إذا قرأت نبأ موقعة حربية طالعتك على الفور صورة الكتائب تلتحم وتتطاحن ، ولكن هذه الكتائب خلفها أمداد أخرى قد تفوقها عدداً هى عدّة النصر الحقة ، كتائب من العَمَلة والصنّاع الفنيين القائمين على الميرة والذخيرة والتمريض وضروب الخدمة العامة .

فذلك ما تراه ماثلا فى هذا الفندق ؛ فان وراء الردهات والقاعات والمطاعم والمراقص وغيرها تختفى حجرات وساحات تحوى المطاهى والمصانع والمغاسل ، فيها جحفل جرار من العمال الساهرين على سد حاجات تلك المدينة الحافلة التى تسمى فى نيويورك فندق ولدرف أستريا !

وسمعنا الدليل يقول خاطف اللهجة ، كأنه يلقى درساً :

« الفندق يتسع صدره لعشرين ألف طارق

« الفندق يشرب كل يوم أكثر من سبعة آلاف لتر من اللبن .

« الفندق يهضم كل يوم ألفى كيلو من ضروب اللحم .

« الفندق يأكل كل يوم عشرين ألف رغيف .

« الفندق متأهب لأن يقدّم عند الطلب من الأنبذة ماقيمته مائتا ألف دولار .

« الفندق يحوى ثلاثة آلاف من الخدم يتولونه ، إلى جانبهم مئون من ماسحى الزجاج « البهلوانيين » مخصصون لتنظيف ستة آلاف من النوافذ .

« الفندق . . . »

فقلت لصاحبى :

— حسبك !

— ألا تريد أن تعتلى السطح لتشهد منظراً لا يساميه منظر آخر عظمة وروعة ؟

— أريد أن ألتمس عظمة أخرى غير ما أشهد !

وخرجت ناجياً بنفسى من أغوار تلك المتاهة ، أحاول أن أتنسم نسيما يمنحنى الهدوء وراحة الأعصاب .

وسرت خطوات ، وقد لمحت فى رأسى أطياف قريتى المتواضعة فى ريف مصر بأكواخها التى لاتناطح شجرة ، بَلْهَ سحابة ، وداري المتخاضعة التى لاتتطلب نوافذها ألعاباً واحداً يتراقص عليها لتنظيفها ! . . .

وهمهمت أناجى نفسى :

— حقا أن السعة والضخامة والسموق عظمة أى عظمة ، ولكن أليس فى السذاجة والضآلة عظمة لا تقل عنها قدراً ؟

والتفتّ إلى مرافقى أقول :

— إلى أين المساق ؟

— إلى « أمباير ستيت بلدنج » كبرى نواطح السحاب فى نيويورك فهى إذن أكبر أبنية العالم أجمع !

— أما تنتهى من نواطحكم هذه ؟ إنى لأشعر بها تكاد تحطم رأسى تحطيما !

ومضينا إلى تلك الناطحة التى تربى طباقها على المائة ، والتى يبلغ علوها نحو ألف ومائتين وخمسين قدماً . . .

حقا إنها لمارد من مردة سليمان مائل بقوامه الفارع المشيق يتعالى فرعنةً

وعتواً . . . فى مستطاعك أن تخترق جوفه بمصعد جنّى يبلغ قمته فى طرفة عين . هنالك فى رأس ذلك المارد تنظر بعينيه حولك ، فتنكشف لك نيويورك على مد البصر : جزيرة رشيقة ، شوارع منظمة ، حدائق منسقة ، أبنية متراصة ، أنهار جارية ، جبال نائية . . .

وبينما أنت تتملى خلابة هذا المنظر الجميل إذا به يختفى بين غلائل من السحاب تحاصرك من كل جانب ، فلا ترى إلا غيما ينسط تحت ناظريك ، فيخيل اليك أن المارد قد طار بك بين أجواز الفضاء ، وأنه يخترق بك طباق السماء . ولا يلبث المارد ان يغمض عينيه ، ويجتذبك الى جوفه ، ثم يهبط بك إلى قراره فى لحظات ، ثم يلفظك فى الطريق ، فاذا بك قد قطعت الرحلة بين السماء والأرض فى غفوة خاطفة من غفوات الأحلام ! . . .

وملت على مرافقى ، وأنا أمر بيدى على جبهتى ، أستعيد يقظتى ، فقلت له :

— ماذا بقى من برنامجك ؟ ألم ننته بعد ؟

— إننا لم نكد نبدأ . . .

— إلى أين بربك ؟

— إلى تمثال الحرية .

— وبعده ؟

— نزهة حول جزيرة مانهاتان . . .

— وبعدها ؟

— جولة مسائية فى أحياء نيويورك الأصيلة .

ووضعت يدى على كتفه فى استسلام وأنا أقول :

— قدنا حيث تريد ؛ فلقد أسلمنا أمرنا إليك و إلى الشيطان . . .

إلى تمثال الحرية .

وحُشرْنا فى سيارة حافلة ، جرت بنا إلى منطقة نيويورك الجنوبية : حى كأنه من أحياء أوربا العتيقة ، شوارع مسمّاة ، لم يجر عليها نظام الترقيم الجديد . طرق ليست مخططة بالمسطرة والفرجار ، هى التى تقرب من أفهامنا ونظامنا المعهود . . .

إن هذا الحى هو نيويورك القديمة ، بل إنه أمستردام الجديدة ، محط رحال الهولنديين ، حين هبطوا هذه الدنيا مستعمرين . وما زال هذا الحى يحمل من

هولندة ظلالا ونفحات . . . لقد أقاموا سوراً يحد مدينتهم ، ويحميها من العدوان ، فأصبح مكان السور طريقاً ضيقاً يحمل اسم السور . . .

فى ذلك الحى طفنا طوافاً عاجلا بمتحف لواشنجتون : طُرَف ومخلّفات ومصورات من عهد ذلك الرئيس الأول للجمهورية الأمريكية . . . ما برح المتحف يحمل روح العصور الوسطى ، ويتنفس أنفاس حرب الاستقلال .

إسراع إلى السيارة الحافلة . . .

هبوط عند المرفأ . . .

قيل لنا إننا فى الميناء . ولكن أى ميناء هذا ؟ إنه ساحل مرصوف يتطاول ويمتد دون أن يدرك له انتهاء . فيه تتراص البواخر على نحو أمريكى ، كله زحمة واحتشاد . . .

هنالك زجّوا بنا فى باخرة أو شبه باخرة على الأصح ، فراحت تمخر بنا الماء إلى الجزيرة التى يقوم فيها تمثال الحرية .

أتمثال للحرية هو ؟

إنه يبدو للعين كلما اقتربنا منه كأنه إلهة لذلك المعنى المحبوب الذى تهوى إليه أفئدة البشر !

طالعتنا تلك الالهة بوجهها الوسيم ، ورأسها المتوج ، وثوبها الفضفاض ، ومشعلها البلورى تحمله يدها الطولى . . .

لقد ارتفعت تلك اليد بذلك المشعل ، وما برحت مرتفعة مناراً للسالك ، ورمزاً لتلك الفكرة المثالية المنشودة الخالدة . . .

كرمت تلك اليد ، ولا زالت قبلة السلام ومبعث النور وفجر الأمل الرحيب .

هى إلهة حقا ، ولكنها من خلق البشر ! . . .

عبقرية فرنسية صاغتها ، ونفخت فيها من روحها . وعبقرية أمريكية أخرى صنعت لها طوداً باذخاً تعتليه لتبعث من عليائه النور على الانسانية الشقية بالظلام . . .

إن فرنسا وأمريكا لتجتمعان فى ذلك النُّصُب العظيم : فى التمثال يتجلى الفن الفرنسى الرائع ، وفى القاعدة تتجلى العظمة الأمريكية بضخامتها وجلالها . . .

نزول فى جزيرة التمثال . . .

صعود فى جوفه . . .

شرفة نطل منها على نيويورك ، فنرى شواهقها مشرقة بهيجة تتجمع متطلعة إلى إلهة الحرية ، كأنها عذارى يتزاحمن مستمدات من أمهن الرءوم روح الحياة !

فترة راحة واستجمام فى أحد المشارب .

نقول إلى المرفأ .

وهنالك ركبنا إحدى البواخر ، لنستمتع فيها بضع ساعات بنزهة بحرية حول جزيرة مانهاتان . . . وما مانهاتان هذه إلا قلب نيويورك الخفاق !

رشيقة أنيقة هى تلك الباخرة ، لم يعبها إلا ذلك التكدس والازدحام ، ونظام الطوابير الذى استتب أمره فى نيويورك ، فأصبح لا غنية عنه فى كل شئ ولا معدى . . .

وتحركت بنا الباخرة يشق صدرها مجرى من الماء ليناً سهلا فى جو طيع ، كأننا فى سيارة حافلة تقطع بنا طريقاً معبداً من الطرق الفساح .

وأخذنا نشهد مايمر بنا من المبانى والحدائق ، وذلك الطريق العجيب تتعدد طبقاته وتتباين أشكاله ، وهذا الصف المتد من البواخر والسفائن كأنها كتائب فى يوم عرض عظيم .

وتخيرنا مكاناً ينأى عن الزحمة ، يتوافر لنا فيه الهدوء . . . وما كدت أستمتع فيه بمجلسى وأتنسم نفحات البحر ، حتى علا صوت لا أدرى من أين نجم . إنه يجلجل وسط الباخرة ، وينفذ إلى أعماقها وخوافيها ، هو صوت إنسان يتحدث فى أداة من مضخمات الصوت ، أما ذلك المتحدث نفسه ، فلم أعثر له على ظل . . .

وعلمت أن صاحبنا دليل يكمن فى ركن مخصوص ، يلقى بشظاياه وهو آمن فى مكمنه مستقر . . . لقد أتوا به ليشرح لنا ما نجوز به من المعالم والمغانى .

ليته يعلم أنى أوثر الاستمتاع وحدى ، مستدلا بعينى ، مستوحياً من المعالم نفسها فيض الشرح والايضاح ، تاركا لخيلتى أن تسبح بى فى آفاق التأمل ما شاءت أن تسبح ، غير مزعجة بمنكر من الأصوات !

ويحك من ثرثار جهورى الصوت ، مصم للأسماع !

إنك صوت مجرد . . . لقد طالما بحثت عن شخصك ، فأعيانى العثور عليك . لعلك اختراع أمريكى جديد . . . ضفدع من طراز حديث فى الصياح والنقيق .

مكانك أيتها الضفدع تستريحى وتريحى !

ولكن الضفدع لا تبرح تنق ، ولا يبرح نقيقها يأخذ على الآذان سبيل الاصغاء !

ماذا تريد أن تقول هذه النقاقة اللجوج ؟

إنها تلم بكل شئ ، وتعبر عن كل شئ ، ماهرة فى الالقاء والتعبير . . .

تارة هى شاعرة تتمدح بمفاتن نيويورك ، ثم لا تلبث أن تنقلب تارة أخرى مؤرخة عالمة تقص عليك تاريخ المبانى والمعاهد والآثار ، وتسرد لك الوقائع والأحداث ، وتشرح لك من ظواهر العمارة والتخطيط ما يدل على إحاطة . . .

وهى فى هذا وفى ذلك تحاول أن تكون طلية الحديث ، فكهة الروح ، تلقى عليك النوادر والنكات مستورة حيناً مكشوفة حيناً آخر . ولكنها لا تنتظر منك قهقهة استحسان ولا صفير استهجان . . . إنها ماضية لطيتها ، كالفلم المسترسل ، أو كقرص الحاكى لا يفتأ يدور حتى ينتهى الدور !

الأمر لله أولاً وآخراً أيتها الضفدع . . .

سنشتف كأس لجاجتك حتى الثمالة ، طوعاً أو على كره . . .

كنا نحسبها نزهة تقر لها الأعصاب ، فاذا بها حرب وقودها الأعصاب . . .

وظلت الباخرة تسير ، والضفدع لا يختنق لها صوت من طول النقيق .

عن الشمال مانهاتان وعن اليمين جزائر وخلجان ، وامتداد لنيويورك العظيمة : بروكان ، كوينز ، برونكس ، جسور شوامخ كأنها أطواد معلقة تكسوها الرهبة والجلال ، أو كأنها هولات تمددت بأجسادها فوق الماء لتصل بين أجزاء اليابسة !

وسمعت الضفدع تقول :

— أمامكم جزيرة أصدقائنا المجانين !

والتفت أنظر ، فاذا بجزيرة مزهرة مشمسة ، تجوس خلال خمائلها جداول رقراقة ، وفى وسطها مبنى جميل تبدو حوله أشباح تروح وتجئ فى رزانة وهدوء .

ليست جزيرة المجانين إلا جنة عدن !

وددت لو وجدنا السبيل إليها ، لنخلص على الأقل من ضفدع الباخرة ، ولسنا نبالى بعد ذلك أن نحرم ألقاب العقلاء !

وجهر الصوت يقول :

— ها هو ذا سجن البرونكس . . . لا تنسوا أن حجراته مجهزة بآلات تكييف الهواء !

يا للعجب ! . . .

نحن فى بلد يحظى بالسعادة فيه صنفان من منكودى البشر : المجانين والمساجين ! . . .

وانبرت الضفدع تسرد أنباء المعالم والمشاهد ، مؤيدة حديثها بلغة الأرقام : لغة الملايين ، غير ناسية فى كل مرة أن تصف ما تصفه بأنه أعظم أمثاله فى العالم المسكون . . .

هذا معهد بلغت تكاليفه كذا مليون دولار ، وإنه أعظم معهد من نوعه فى العالم!

هذا نُصُبٌ بلغت تكاليفه كذا مليون دولار ، وإنه أعظم نصب من نوعه فى العالم !

يزهى الأمريكى دائماً بثلاث ضخامات :

ضخامة المال .

ضخامة الشكل .

ضخامة الصيت .

وإنه ليؤسس مدنيته على تلك القواعد الثلاث !

وطالعتنا فى أطراف جزيرة مانهاتان غابة من أروع الغابات ، قائمة على تلال عجيبة ؛ غابة موحشة تمثّل البداوة والفطرة فى قلب الحضارة والعمران . لكأنهم اقتلعوها من مغرسها الأصيل فى المجاهل والأدغال ، وجاءوا بها ليتخذوها طرفة وقرة عين ، كما تجتلب الوحوش من مغاورها وأجحارها ومسارحها لتسكن فى الحواضر حدائق الحيوان . . .

ودارت بنا الباخرة يسرة ، ومضينا . . . فاذا نحن أمام جسر واشنجتون العظيم ، يتلألأ بلونه الفضى فى وهج الشمس ، ويمتد بجرمه الرائع وبسلاسله الضخام ، كأنه صرح ممرد من زئبق رجراج . . .

ثم بدت نيوجرسى مختالة بمصانعها ، يحدها الشاطئ الجميل ، وتتناثر فيها المغانى أنيقة رشيقة ، وتنبسط فيها المروج بهيجة نضيرة !

وما زالت الباخرة تمخر العباب ، والضفدع توالى النقيق ، والمناظر الأمريكية كأنها ألواح فنية يحاول كل لوح منها بفتنته أن يقيد الأنظار . . .

وبلغنا غاية المطاف .

فوقفت الباخرة ، وخرست الضفدع . . .

و إذا بنا نُدفع خارج الباخرة دفعاً ، ويلقى بنا فى عُرض الطريق . . .

والتفتَ إلىّ مرافقى يقول :

— حان وقت الجولة المسائية فى أحياء نيويورك الأصيلة . . .

وما كاد الظلام يسبل أستاره ، حتى انبرت له الأنوار الألاقة تطارده ، فيرتد مقهوراً على أعقابه . . .

طرقنا أول ما طرقنا قرية جرينوتش . . .

ليست بقرية ، و إنما هى حى معروف له طابعه وروحه ، ولكن ما سمعناه عنه أكبر من مظهره . . . إنه مثابة الفنانين ، فيه نبت أكثرهم وترعرع . نشأوا فقراء فى أكنافه التواضعة ، فلما أخذت أسماؤهم تعلو ، وصيتهم يطير ، ارتحلوا عنه إلى منطقة نواطح السحاب ، كأنهم يوازنون ويلائمون بينها وبين ما كتب لأسمائهم من علو وبعد صيت . . .

إن من بين هذه الدور الضئيلة ما هو معروف حتى اليوم باسم أصحابه الأقدمين من الفنانين الذين هجروه وخلّفوه لغيرهم من السكان المحدثين .

إن جرينوتش قرية حقا إذا ووزنت بنيويورك . . . قرية بمنازلها المتخاضعة ونواديها المنزوية حيث لا يقيم أهلها شأناً للعرف ولا للتقاليد . . . وما أشبه مشاربها ومراقصها ومغانيها بنظائرها فى مثل ذلك الحى من عواصم أوربا العجوز.

لقد جبنا أرجاء جرينوتش وقضينا فيها بعض الوقت ، ولكننا لم نفز بغير ظاهرها المكشوف ، وليس بذى بال . . . أما الخفى المستور فهو لأهلها خاصة ، لا يزاحمهم فيه واغل دخيل . . . من ذلك الخفى المستور مسارح للفن قائمة ، ولكنه الفن الوضيع فيما يرى بعض الناس ، أو جوهر الفن الحق فيما يرى بعض آخرون ! . . .

فى تلك الدمن تنبت زهرات نواضر تتفتح بين الفينة والفينة ، فاذا نزع الشوك عنها ، وأزيل الغبار منها ، كانت أهلا أن تزين صدور المجامع والمحافل وتنفحها بعطرها الفواح . . .

وطرقنا « البورى » مباءة الاجرام ، ومثوى الصعلكة والتشريد ، ووكر الفن المبتذل الرخيص .

على الـطّوار يستريح الصعاليك، فاذا لمحك واحد منهم وآنس فيك سغنا تقدم إليك بجسمه الرخو وثيابه الرثة وخطواته المتسكعة وأنفه المتورم المخمور، يمد إليك يد السؤال . . . وعليك حتما أن تجيب ، وإلا انقلب السؤال إلى وعيد وتهديد !

يا لله . . . ها نحن أولاء فى أمريكا دنيا الرخاء والثراء ، يلاحقنا ذلك الصنف من النـاس ، أولئك المستجدون الذين لا ينقطع لهم سيل فى بلاد الشرق . . . ولـكن المستجدى الأمريكى والمستجدى الشرق يمثل كل منهما طابع أمته وروح وطنه . . . فالسائل فى القاهرة مثلا إذا زجرته استعان عليك بالله ، وانصرف عنك فى استسلام . وأما السـائل فى نيويورك فانه يتقاضاك ما يعده حقا له بالظفر والناب ! . . .

وهذه مشارب ومراقص تـكتظ على سعتها بالحشود من الأوشاب ، طلاب الدنايا من المتع ، يتجمعون حول موائد الشراب ، وقد اندست بينهم الغوانى المتبذلات . . .

وبدت لنا على منصة فى أحد تلك المراقص امرأة ، بل كتلة خسيسة من لحم وشحم ، بوجه لوّنه الطلاء البشع ، وقد اكتست حلة برقشتها زوائف الزينة والوشى . وهى تصوّت أمام سضخم الصوت فى نغمة منكرة ، موهمة سُمّاعها أنها تشدو وتتغنى !

ما أشبه الليلة بالبارحة !

أليس هذا المكان هو نفسه ذلك المرقص الوضيع الذى كان يزخر بالقصاد فى أحط أحياء القاهرة إبان الحرب العالمية الأولى منذ أكثر من ربع قرن ؟

ألا فلنول فراراً من « البورى » . . .

وحثثنا الخطا . . .

إلى أين ؟

إلى مدينة الصين ، إنها منا على مقربة . . .

حياك الله أيتها الصين النائمة فى وداعة وهدوء . . . إنا ملاقوك بعد قليل ، وإن باعدت بيننا الديار ، وعز المزار . . .

وأقبلنا على ما يسمونه مدينة الصين . . .

حقا أنه حى متميز قائم بنفسه ، لا تطالع فيه إلا أشباحاً صينية فى

أزياء غريبة ، تتناثر بينها الأحاديث فى لهجة تشبه همس القطط !

ثمة حوانيت ترى على جبينها تلك النقوش والزخارف الصينية التى هى فى أغلب الظن أحرف وكلمات !

وثمة دور متواضعة متخاضعة ، وطرق ضيقة غير مستقيمة . . .

ولكن أنحن حقًّا فى مدينة الصين ؟

دخلنا مطعما نستهديه الجواب .

إنه ليحمل نفحة صينية استرعت أنظارنا بظاهرتين :

الأولى تلك الألوان الغريبة التى قدمت لنا ، فكان مذاقها مبعثاً للحيرة والعجب ، وإن الرز ليقدم بينها بديلا من الخبز ، والشاى يقدم أثناءها عوضاً عن الماء !

والظاهرة الأخرى ، ذلك النادل الصينى الذى ما كاد يبدأ خدمته لمائدتنا ، حتى انتحى ناحية عن كثب منا يلتهم عشاءه ، بعصوين تقومان مقام الشوكة والملعقة ، وهو يحركهما فى مهارة تستدر الاعجاب !

وحمدنا لله ما قدّر ويسر ، وخرجنا وفى بطوننا خَواء !

وانصرفنا نسلك الشارع الضيق ، تطل علينا من نوافذ دوره تلك الوجوه الصفر ، والأنوف الفطس ، والحواجب المشرئبة . . .

وسمعت مرافقى يقول :

— هل لكم فى زيارة المعبد ؟

— تالله إنى إليه لمشوق !

مدخل ليس فيه من روح التعبد إلا مظهر ضئيل .

واجتزنا ممرًّا ضيقاً ينتهى بنافذة ، كأنها شباك التذاكر فى دور اللهو . . .

أمعبد هذا أم مسرح تمثيل ؟

واشترينا تذاكر الدخول ، وتابعنا الخطا . . .

بهو غير فسيح تتراص فيه المقاعد ، تزين حائطه نقوش صينية ، وخرق ملونة كأنها أعلام . . . وفى صدر المكان محرابان ، أو بالحرى هيكلان مشحونان بالطُّرف والتماثيل من فن الصين ، يتميز أحدها بالعظمة والفخامة ، وما أظنه إلا تمثال بوذا المعبود . . . إنه حقا لتحفة من تحف النحت ، تدل على صبر الفنان الصينى ودقته وأناقته . . .

وكان دليلنا فى المعبد فتاة صينية على جانب من الرقة والأدب ، انطلقت تصف لنا مراسم الزواج ، وكيف تتم أمام هذا الهيكل .

وحانت منى التفاتة ، فألفيت أريكة ساذجة تتربع عليها امرأة صينية هزيلة تخطت عصر الشباب . . . وسرعان ما أدركنا أنها أم تلك الفتاة التى تقوم فى المعبد مقام الدليل . . .

لقد كانت هذه الأم تمثل فى جلستها بوذا آخر ، بيد أنه بوذا من طينة البشر ، منهمك فى تقشير برتقالة ! . . .

واقتربنا من الالٰه البشرى نبادله إيماءة التحية فى صمت ووقار . . .

ما بال هذه البرتقالة تشوب فى هذا المكان صفاء التعبد ؟

أغلب الظن أن ذلك المبنى دار تسكنها هذه الأسرة ، وقد أحالتها مسرحاً كما نرى تمثل فيه العبادة تمثيلا لا حقيقة له ولا روح فيه . . .

إنه معبد للأجانب من الزوار ، لا للمواطنين من أهل الصين !

ولكن حسبه أنه يكفل الرزق لتلك الأسرة ، ويعينها على أعباء العيش . . فلا ضير علينا فى أن نحنى له الرأس خاشعين !

كثير من معالم المدينة يصور مظاهر من حياة الصين على الأسلوب الذى هو أقرب إلى التمثيل منه إلى الحقيقة والواقع . . .

إن مدينة الصين ، على الرغم من كل شئ ، وعلى الرغم مما قيل فيها وما توصف به ، رقعة من نيويورك لا قطعة من الصين الأصيلة . . .

أراهن على أن الصينى المقيم فى هذه المدينة قد بدأ ينسى صينيته ، ولم يحتفظ منها إلا برطانة كليمات يميز بها شخصيته ، كما يحلى حانوته ببعض الزخارف والنقوش . . . وقد يكون مثله فى ذلك كمثل الملحد الزنديق يتخذ السبحة ليحرك حباتها بين أنامله ملعبة وملهاة !

أراهن على أن صينى نيويورك لم تطأ قدمه أرض الصين يوماً فى حياته ، حتى إنه لم ير منها ظل شنغهاى مدينة الأوربيين فى الصين !

إن مدينة الصين فى نيويورك تمثل ما كان يمثله قصر المهراجا فى معرض ومبلى فى لندن . . . وأخشى أن أقول ما يمثله اليوم مسجد باريس ! . . .

محمود تيمور